

ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

— ١٠ —

أقف قليلاً حتى أستعد لتدوين ما سمعت من ظمياء . وأشهد
أني سمعت بقية حديثها وأنا كاره ، لأن اسم عبد الحسيب أصبح
يزعجني ، فهو الحبيب الأول ، وأنا إن شاء الهوى سأكون الحبيب
الثاني . وحاسة ظمياء في سرد القصة قد تنتهي بتذكير ليلي
بماضيها فتتكس وتضيق من يدي ، لا قدر الله ولا سمح . وهل
أملك زمامها إلا إن وصلتُ بها إلى ساحل العافية ؟ كتب الله لها
السلامة ، وشقي من أجلها جميع المرضى من الملاح !

ومن واجبي نحو نفسي أن أنص بصراحة على أني لست لثما
كل اللؤم في هذه القضية — وما أبرئ نفسي ، إن النفس
لأتمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربي — فأنا أحب أن تُنماني ليلي
لأنفرد بهواها ، ولكنني مع ذلك أشعر في بعض الأحيان أني
أخدمها باخلاص ، فانه يميز عليّ والله أن تُعطب سيدة لها مثل
طرفها الساحر ، وصوتها الرخيم . يميز عليّ أن تعطب مثل تلك
الإنسانة وإن خلت منها يدي ، وهذه فيما أظن أول صرة أشعر
فيها بحلاوة الصدق ، فقد مضت أعوام وأنا لا أداوي امرأة جميلة
إلا هممت بخطفها من زوجها . وقد وقعت لي من ذلك حوادث
سيطول عليها ندى ، حين أتوب إلى رُشدِي ، أنا الطبيب الآثم
الذي زعزع عروش السعادة في كثير من البيوت

أنا أشعر حقاً وصدقاً أن ليلي تهمني ؛ وأشعر حقاً وصدقاً
أن مستعد للتضحية بنصيب من هواها ؛ ولكن ما الذي يمنع
من الجمع بين المزيئين : عافيتها وسعادتي ؟ يمكن بسهولة أن تصير
محبوبتي بلا بنى ولا عدوان ، والخلاسة أن أريد أن يُنسى اسم
عبد الحسيب ، ولكن كيف ؟ إن قصته تهمني جداً ، لأنها
ستعلمني كيف أسوس ليلي ، وهذا بيت القصيد ، فقد أصبح
مفهوماً عندي أنه كان (عبيطاً) لا يعرف ما يأتي وما يدع . وكان
مصيره أن يُجرم عطف ليلي ، فيمرض هو في مصر ، وتعرض
هي في العراق ، وما أحب أن أكون ثالث المرضى !

بإعادة الصرح الأموي الذي تهدم في الشرق ؛ وتوطيد دعائم
الملك الذي غلب ، وإنشاء أسرة أموية جديدة في الغرب ، قدر
لها أن تسير بالأندلس في سبيل المظمة والفتخار أحقاباً

بيد أن هذا الظفر الباهر كانت تنشاه دائماً آلام نفس معذبة
ذلك أن المحنة طبعت نفس عبد الرحمن وروحه إلى الأبد بطابع
الكآبة والشجن ؛ وهو لم ينس قط أنه سليل دوحنة تصصفت
واجتث أصولها الراسخة حيث كانت يانمة زاهرة ، وأنها اجتثت
في مناظر دموية صروعة كان من شهودها وكاد يفدو في ضحاياها ؛
ومن ثم نراه حتى آخر حياته محزون النفس يتلف على ماضيه ،
ويكي مجد أسرته ، ويتحسر على فراق وطنه ، وعلى نفيه وغربته
وقد انتهت إلينا من شعره أبيات مؤثرة تفصح عن آلامه المنوية
مثل قوله في التشوق إلى ربوع الشام :

أيهذا الركب الميم أرضى أقر من يمضي السلام بيمضي
إن جسمي كما علت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
وقوله وقد رأى في الرصافة (١) نخلة منفردة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تنامت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

وطول التناي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فثلثك في الاقصاء والتناي مثل (٢)

تلك هي مأساة عبد الرحمن الداخل ؛ ونقول مأساة لأن
الظفر الذي اختتمت به لم ينزع عن هذه الحياة الشاقة لونها المؤسى .
وقد كان الداخل يلا ريب من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسي ؛
بيد أنه في حياته الخلسة يبدو لنا دائماً ذلك الطريد الذي تتر
محتته وآلامه في النفس شجنا ، قبل أن تثير أعماله الخافلة في
النفس إعجاباً

محمد عبد الله عثمان

(١) رصافة قرطبة ، وقد أنشأها الداخل لثبها بمجده هشام حيث أنشأ
الرصافة بالشام

(٢) وفي نسبة هذه الأبيات إلى الداخل خلاف

أنا أجلس أمام أحد الدراويش في بغداد لأشوف بجنتي ، وأنا
الذي غلبت الساحر الهندي على شاطيء الاسكندرية في صيف
سنة ١٩٣٤ ؟

ليت أبي تعود !

فازلت أذكر كيف أعطاني ذلك الساحر الهندي عشرين
ديناراً في سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الكف لمن يحج ذلك
الشاطيء من الظليات

وخلاصة القصة أي ذهبت في ضحى يوم سائف إلى خليج
ستانلي ، ونزلت بشوب البحر إلى ملعب الغزلان ، فرأيت فقيراً
هندياً يقرأ الكف لفتاة ناهد تشبه أفروديت ، أو تشبهها
أفروديت ، جلست بجانبها جلسة الباحث التمتع ، لا جلسة
اللامى اللالع ، وما هي إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق
بصحة ما يقول : على رسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل
العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمسيرها على
غير هدى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدراويش الجاهل !

فازعج الرجل ازعاجاً شديداً ، وفقراء الهنود ضماض العزائم
والقلوب في أكثر الأحيان
ونظرت الفتاة في استغراب وقالت : وخضرتك تعرف علم
الكف ؟

فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق : نعم أعرف علم الكف
وهو خير ما تعلمت في باريس !

فانمطت الفتاة في تحايل وقالت : تسمح تقرأ لي كفى !
فأخذت يدها ونظرت إلى صدرها مرة وعينها مرتين ، ثم
شرعت أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين
وما هي إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطيء

فهل تعود أبي ؟ هل تعود ؟ أمرى إلى الهوى !
وتحايل الساحر الهندي وتضعف وأقبل يسر في أذني :
تفضل بكلمة ؟ فقلت : نعم . واتحينا بعيداً عن أسمع الأطباء فقال :
أعرف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وأعرف نانياً أني أعلم منك
بقراءة الكف ، ولكني واثق بالهزعة إذا ناسنك ، لأنك تحدث
الفتيات بأحاديث أجملها كل الجهل ، وينب على ظني أنك لا تقرأ
الكف ، وإنما تقرأ السيون ، ولا علم لي وحيمة غاندى بلغة السيون

يضاف إلى هذا أن ظمياء ستكلم أيضاً عن درية أخت
مبد الحسيب ؛ وهذا الاسم يهتني جداً ، ولا أعرف السبب في
ذلك ، ولعل أعرف بمد حين ، فقد تتذكر الإنسنة التي تحمل
هذا الاسم الجليل أن النتي الذي كان بصارحها وتكاعه لم ينس
أن جسمها كان أخصب جسم تبختر واختال في شارع فؤاد .
ولعلها تعرض هي أيضاً فيُدعى لها الطبيب الذي يداوى ليلي
الريضة في العراق

درية ، متى تمرضين ؟ إخص عليك ! بل متى تصنعين المرض
لأراك — في غير رية — ممددة على السرير ؟ متى ؟ متى ؟ إن
بلائي سيطول !

أنا أغار من اسم عبد الحسيب ، فليؤجل حديثه لحظات ،
ولأدون بعض الوقائع المتصلة بهذه الأحاديث

١ — بجوار دار المعلمين العالية رجل يجلس على الأرض
(يضرب الرمل) وهو معروف لسائر أهل بغداد ، وهو يذكركني
بأمثاله من الذين كنت أستخبرهم مصيري في الحب حين كنت
أسمى بشارع الخليج . وما كنت أول محب استخبر الرمل ،
فزميل البهاء زهير تنطق أشعاره بأنه كان يعرف جميع من
(يضربون الرمل) بالقاهرة

أقول إنني أفق دقائق كل صباح حول بساط هذا الرجل وأنا
في طريق إلى الدرس ، والطلبة يمرون فلا ينتقدون أستاذهم ،
لأنهم سمعوا أنه أديب فيلسوف لا يهيمه غير الوقوف على أحوال
المجتمع . ولكن الواقع غير ذلك ، الواقع أني بدأت أخوف
مصيري في هوى ليلي ، وأصبحت كالطفل أصدق كل شيء .
ولكن كيف أستخبر الرمل والطلبة يقدون وروحون وأكثرهم
يحمل المصورات الشمسية ، وفي مقدورهم أن يأخذوا صورتي
على تلك الحال ويقدموها إلى الجرائد فأصبح محور السمر الساحر
في الأندية والمهاد ؟

الحل سهل : أنتظر ذهاب الطلبة للنداء ثم أعرج على ضارب
الرمل لأشوف بجنتي
كذلك فعلت

وبلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟

جلست إلى الرمل أستلهمه وأستوحيه ، والأمر للهوى
 - يا با ، يا با
 - نعم يا عمي
 - لك أعداء في الشام ، وسينصرك الله عليهم
 - طيب ، طيب ! (وماذا جنيت حتى يكون لي أعداء في
 الشام أو لبنان ؟)
 - ولك أعداء في مصر ، وسينصرك الله عليهم ، قل آمين
 - آمين ، آمين !
 - ولك في العراق فرد عدو (يعني عدواً واحداً)
 - طيب
 - ويحيي إليك فرد مكتوب
 - من وين يا عمي ؟
 - من بغداد
 - خير ، خير
 - وأنت تحب فرد امرأة ، وأكو^(١) ناس يحسدونك
 - أكو خوف يا عمي ؟
 - ماكو خوف ، ولكن احترس
 فنفتحت الرجل درهما^(٢) ومضيت
 وبالقرب من جامع مرجان سمعت صوتاً بناديني قالت فاذا
 أحد سعاة البريد يقبدم إلي خطاباً فمجيبت من أن تفضحنني
 ليلى إلى هذا الحد ، ونظرت قرأت العنوان مكتوباً بهذه
 الصورة الطريفة :
 « لحضرة الأستاذ الخفيف الروح الدكتور زكي مبارك
 يسلم إليه أثناء تجواله في شوارع بغداد ا ا ا »
 شيء ظريف حقاً ، وأي ظرف أروع وأمتع من أن تصبح
 دار إقامتي موزعة بين شوارع بغداد ، وأن ترى مصلحة البريد
 أنها مسئولة عن البحث عنى في شوارع بغداد ؟
 إن مرسل هذا الخطاب لا بد أن يكون أظرف الناس .
 وإذا كان العنوان بهذه الصورة من اللطف فسيكون الخطاب
 ولا رب آية الآيات في خفة الظل ولطف النسيم

(١) أكو : يوجد ، ويقابلها (ماكو) أي لا يوجد . في اللهجة العراقية
 (٢) كلة (درهم) لا تزال حية في العراق وهي قطعة تساوي (الربع
 ريال) في العملة المصرية

فقلت : وماذا تريد ، أيها الشيخ ؟
 فقال : أرجو أن تبيني هذا الميدان
 « وعندئذ تذكرت أنني موظف في الحكومة المصرية وأن من
 الممكن أن يتعقبني مندوب (آخر ساعة) أو مندوب (روزاليوسف)
 أو مندوب (الصباح) ، وأن من المعقل أن أقبض ما يمكن قبضه
 وأترك الميدان »
 - وماذا تقدم يا شيخ ؟
 - أقدم عشرة دنانير
 - أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير؟ هيهات!
 - يا سيد ، أنت في وطنك وأنا غريب
 - ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب
 - أنا لست أجنبيًا بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم
 مثلك وأتكلم اللغة العربية
 - إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكني لا أترك هذا الميدان
 بشرة دنانير
 - أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً
 - أنت إذا جهول ، ولو كنت مكانك لجمت ألف دينار
 في شهرين
 - هذا ما وقع وأنت تعرف يا سيدي أن عمل السحر صار
 قليل المكاسب بفضل المقالات التي تكتب ضده كل يوم . وأنت
 يا زميلي تعرف ما جنت علينا حذقة أصحاب الجرائد والمجلات
 - إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين
 فقبل الرجل وقدم المبلغ ، فأخذته وانصرفت
 وقد علمت بعد ذلك أن عرائس الشاطي ، شككن في قدرته
 على فهم أسرار الكف فبار سوقه وضاع
 - أما أنا فضيقت في دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ،
 ولكل مجتهد نصيب
 * * *
 ليس من الغريب أن يكون هذا حالى في العلم بمصابير القلوب
 ثم أجهل مصير قلبي ؟
 إن هذا للدليل على ضعف القدرة البشرية ، إن كان ذلك
 ما يرتاب فيه الزنادقة والملاحدون

ولكني ما كدت أفرض الظرف وأنظر الخطاب حتى
انزعجت . فهو غير إرضاء وكأنه ينهاني عن عيادة ليلي ، ويهددني
بالقتل ... أمرني إلى الله لا إلى الهوى !

ورأيت أن أحتاط لنفسي فذهبت أستشير صديقاً بالفوضوية
المصرية سبقتني إلى العراق بسنتين ؛ فكان من رأيه أن أبلغ
الخطاب إلى الشرطة . وأكد لي أن العراقيين لا يعرفون المزاح في
هذه الشؤون . وبعد ساعة من تسلّم الخطاب كنت عند سعادة
رئيس الشرطة ، فكان أول كلامه بعد رد التحية أن قال :

— إيش لون ليلي ؟

— أهدد من أجلها بالقتل !

وقدمت إليه الخطاب فكان يقرأ والنضب يتقله من لون

إلى لون ، ثم ابتسم فجأة وقال :

— ولكنه صفح عنك !

— صفح عني ؟ وكيف ؟

— ألم تقرأ هذه الجملة ؟

ونظرت فإذا في نهاية الخطاب « ولكني عدت عن هذا
الخطأ لأنني إذا قتلتك قتلت معك علماً غزيراً في الطب ، ووفقاً
دقيقاً في الأدب » فمجتبت أن تفوتني هذه الجملة ، ولكن يظهر
أن أزعاجي صرفني عن استيعاب الخطاب ؛ والتهديد بالقتل يصنع
أشنع من ذلك . عافى الله قراء هذه المذكرات من الأسواء

ولما اطمانت إلى صفح غريبتي في هوى ليلي تشجعت وقلت :
ومع هذا فأنا لا أبالي أحداً ، وقديماً قال جميل :

فليت رجالاً فيك قد نذر وادى وهموا بقتلي يا بين لقوني
إذا ما رأوني طالماً من نبيّة يقولون من هذا وقد عرفوني
فقال رئيس الشرطة وهو يتنسم : يجب أن تنق يادكتور
أن العراقيين يقدون ضيوفهم بالأرواح ، وهم لا يخافون عليك
إلا عادية هواك

٢ - تفضل سكرتير محطة الاذاعة العراقية فدعاني لإلقاء
محاضرة عن الحكم العطائية ؛ وأنا فيما يظهر رجل خداع ، فقد
ظن الأستاذ فؤاد جميل أنني أصلح الناس للكلام عن حكم
ابن عطاء الله ؛ ولما حدثت في بغداد هي التي هدته إلى ذلك ،

فقد رأني أحفظ آداب الصيام ، وأؤدي الفرائض والنوافل ،
فظنني رجلاً تقياً ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له في
التخلق بمكارم الأخلاق . وهل يستطيع رجل مثل أن ينحرف
عن الصراط المستقيم في بغداد ؟ إن استقامتي في هذه المدينة
ليست إلا ضرباً من الآداب الصناعية ، ولن تكون لها قيمة
إلا إذا عاملني الله عز شأنه بالمثل المأثور :

« يؤجر المؤمن رغم أنفه »

وهنا أشعر بأن الله تباركك أسماؤه خصني بمزية قليلة الأمثال ،
فأنا أحاسب نفسي قبل أن يحاسبني الناس ، وأدون عيوب قبل
أن يدونها الكرام الكاتبون ، وربما كنت الرجل الوحيد الذي
يخفي حسنه - إن كانت له حسنة - حتى لا تزل قدمه في
مزالق الرياء

أقول إنني ألقيت محاضرة في محطة الاذاعة عن حكم
ابن عطاء الله ، ولكني ما كدت أودع جمهور المستمعين حتى
كان المذيع يجلبجلب :

يقولون ليلي في العراق مريضة

فيا ليتني كنت الطبيب المداوي

وكانت لحظة طرب لن أنساها ما حيت ، فاسم ليلي يشوقني ،
وبفضل ليلي رأيت العراق . وبدأ لي أن أسأل عن صاحب الفضل
في إمتاعي بهذا الصوت ، فمرفت أنه الأستاذ يونس بحري صاحب
جريدة العقاب . ويونس بحري أديب شرب ماء النيل ، وذاق
لذة الأسماك في القاهرة ، وعرف كيف تطيب الأصائل والعشيات
في مصر الجديدة والزمالك والمعادي وحلوان ، وتغرغ على الرمل
المقدس : رمل الإسكندرية وبورسعيد ودمياط ، وقد شاء له وفاؤه
لمصر أن يؤنسني بهذا الصوت ، لأنه يعرف أنني طبيب ليلي ،
ولأنه يعرف أن السيدة نادرة حضرت نادي الصحافة منذ سنين
فلم تر إلا أن تجلس بجانبني عند أخذ الصورة التاريخية ليصح لها
أن تقول إنها رسمت وبجانها قلب خفاق

وليس من الزيد أن أقول إن محاضراتي في الاذاعة ينتظرها
الناس في جميع أرجاء العراق ؛ وكذلك كان إلقاء ذلك الصوت
بعد محاضرتي شاهداً على حلاوة العناية العراقية التي خلدها
أبو الفرج الأصفهاني على وجه الزمان

ليلي ، يا بنت الفرات !
أمرى وأمرى إلى الهوى ، فإليه ترجع القلوب !

ألم بأن لي أن أعود إلى حديث الضابط عبد الحسيب ؟
إن حديثه لن يصل إلى ليلي حتى أكون أنسيته كل من
في الوجود . وهل أمكن يوماً أن يكون لي فيمن أحب شريك ؟
فلنقص حديث ذلك التريم بلا تهييب ولا إشفاق

قالت ظمياء (وما أعذب كلام ظمياء)

— وأفاض الشيخ دعاس في شرح الاستشراق والاستغراب
ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدعى علم الشرق ، والمستغرب هو
الذي يدعى علم الغرب . ثم تشعب الحديث من فن إلى فن ،
فانتقلنا من الأدب إلى السياسة ؛ وليلي لم تشاطرنا الحديث ، فقد
كانت مشغولة البال بانتظار عبد الحسيب . وكانت ترجو أن يكون
هو الفتي الذي رافقناه في قطار المرض . وبعد ساعات صرت
على ليلي كأنها أعوام دخل شاب أخضر العينين ، وكان هو
يامولاي ، هو نفس الفتي الذي دارت معه ليلي في قطار
المرض دورتين

— وكيف كان التلاق ؟

— فرّت ليلي من وجهه فرار الظبية الضميفة من القانص
الظلوم ، فانزوت في أحد أركان البيت . وألحت السيدة بجلاء في
أن تفضل ليلي بالسلام عليه ، فاعتذرت بأن سلام الفتاة على
الفتى وهي ليست من محارمه أدب تنكره حرائر العراق
« للحديث شجون » زكي مبارك

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة فيها النص الكامل لكتاب اعترافات
فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص من موضوعات
ومتقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

جلست بعد المحاضرة أستمع هذا الصوت ، والرفاق يصجون
من حولي بالضحك ، وفاتهم أني صرت كالذي قال :

بدي عيني اليسرى فلما زجرتها عن الحلم بعد الجهل أسبلت معاً
مقد كنت أعرف أن ليلي تسمع ، وكنت أعرف أنها
ستترب لهذا الصوت الذي حبه البغداديون عن أذنيها خمس
سنين ، وكنت أعرف أنها لو رأني لقبلتني . ولكن هل تقبلني
ليلي ؟ ليت ثم ليت !

وخرجت من دار الإذاعة فعبرت دجلة من الكرخ إلى بغداد
وأنا في ذهول ، فحدثني النفس بحلاوة الفرق في ذلك النهر الذي
وحي ما وحي ، وضيّع ما ضيّع ، من أسرار القلوب . ثم تذكرت
ديوني في القاهرة ، ديوني للوجوه الصبّاح التي تعطر بأنفاسها
نسائم مصر الجديدة والزمالك ، وديوني لعرائس دمياط اللاتي
تفردن بنعومة الأجسام وعذوبة الأحاديث :

رباه صُنّت فؤادي من الأسى والحنين

ولم نشأ لضلوعي غير الجوى والشجون

فكيف تصفو حياتي من الهوى والفنون

أم كيف تُرجى نجاتي من ساحبات الجفون

وهل من الائم في هوى ليلي أن أحنّ إلى هواي في القاهرة
عروس الشرق ؟

هل من الائم في هوى ليلي أن أذكّر غُبوق بمصر الجديدة
وصُبوحي بالزمالك ؟

هل من الائم في هوى ليلي أن أقول إني أبذل دى إن
استطعت لأقضى ليلة واحدة في ضيافة ليلي الصحيحة في حلوان ؟
متى تعود أياي وأستأنف اختطاف القبلات في القطار بين
المادي وحلوان ؟

وما كنت أنتظر أن يخط قلبي أمثال هذه الاعترافات ،
ولكني أحب أن تثار الإنسانيّة التي سيخلد اسمها شارع المباس
ابن الأحنف في بغداد ، فإن غارت فهي ليلي بنت ليل وإلا فهي
مخرة تفرها الثلوج في أقاصي الشمال

وأقسم لئن لم تنته عن تذاقلها البقيض لأحدثتها عن ليلي
وأياي في فندق مينا هاوس بسفح الأهرام ؛ ولئن فعلت لأسوِّب
إلى صدرها سهماً مسموماً لا يُرجى منه شفاء